

مزية الاستاذ أحمد توفيق المدني على تاريخ شمال افريقيا

عبد الرحمن الجيلالي

عندما ضاق صدر حكومة الاستعمار الفرنسي في تونس بالأستاذ
النايعة أحمد توفيق المدني هنالك ففكرت وقدرت ثم فكرت وصصت
على أخذ مسلك الابعاد من تونس الى الجزائر ولم تدر - و تكن
تدري - أن موطن آباءه وأجداده كانت تنتظره ، فحل بها رحمه الله
مكرما ومعظما (1925 م) . وكانت الجزائر العربية المسلمة يومئذ
متطلعة الى أمثاله من رجال الحزم والعزم والنشأ ويقظة النفوس ليأخذ
بيدها في طريق تسديد خطته المرسومة لديها التي عازمة على تنفيذها
وتطبيقها في ميدان السياسة والثقافة والاجتماع .

وحيثما طلع عليها ابنها الأبى البار قادما عليها من شقيقتها تونس
الخضراء ووجدت فيه بغيتها وما كانت تصبو اليه وتتطلبه فاصطفته
لنفسها واحتضنته احتضان الأم الحنون على ابنها الوفي الأبى ، فكان
لها كالغيث النسيم والمرهم الناجع ، فشرفها وشرفته وكان ابن جدرانها
نبراسا مضيئا وسراجا منيرا . فشارك في مختلف ميادين نضالها وساحات
جهادها الدؤوب المستمر فقادها الى النجاح والفوز .

وكان رحمه الله كما عرفته - مما يزيد عن نصف قرن - حركة دائمة
دائبة ، لا يقتر ولا يكل ولا يمل فكلما كان هناك مجال فسيح يرى
لنفسه فيه فسحة للعمل الصالح العامل فيفيد ويستفيد الا وبادر مسرعا
الى المشاركة في ذلك المجال يعمل بنشاط في بعث الحماس في أصحاب
ذلك المشروع فيخطب فيهم بما عهد منه من تلك الخطب الحماسية الرنانة

ويدلي اليهم بنصائح المفيدة وتوجيهاته السديدة وكيف لا ! وهو بلبل
المنابر وفارسها •

لقد علم القوم اليمانون انني اذا قلت أما بعد اني خطيها

وهكذا كلما رأينا وجدناه في الطليعة مهما كان الأمر متأثرا بما يحسه
في نفسه ويشعر به في قرارة وسلوك قلبه من يقظة هذا الشعب المتعطش
والمطلع الى السعادة الأبدية ••

وهو الى ذلك في آن واحد يؤثر في غيره ممن يكون حوله من الرجال
يبعث قبس من روحه الثائرة التواقاة الطموحة فيهم فتري أنه لا يكاد
ينفض ذاك الجمع المجتمع حوله الا عن عمل مثمر أو عن قرار مبشر ،
وهكذا سائرا في سائر الميادين التي شاهدها بها وعرفناه عليها : مرشدا
نصوحا ومعلما سموحا وسياسيا محنكا وخطيبا مصقعا ، وكاتبا بليغا ،
ومؤلفا باحثا وصحفيا أمينا ••

فلا تكاد تسمع بمشروع علمي أو أدبي أو سياسي أنشأ أو أخذ في
تأسيسه في البلاد - وفي أي ناحية كانت منها - الا وتري لتوفيق اليد
العاملة البناءة فيه مشاركا في تكوينه وتسويته بكل ما يملك من رأي
وتدبير أو عمل وتسيير ••

وماذا عسى لي أن أحصي أو أعد مواقفه المشرفة في هذا الميدان ؟
فهذه مجامع وجمعيات وهذه نواد وندوات وهذه مشاريع ومؤسسات ،
وهذه مسامرات ومحاضرات وهذه منظمات •• وهذه ، وهذه •• مما
لا يكاد يأتي عليه الحصر ••

وكان فيما خبا له القدر من النعم ليمتاز بها بين أقرانه الباحثين والعلماء
المجتهدين وليكون له القدم الأولى فيها ان ألهمه الله الى القيام بوضع
تأليف انفراد فيه وحده بين جميع من سبقه من العلماء الباحثين حملة
القلم العربي بتحرير موضوع جليل خدم به وطنه بما لم يخدمه به أحد
غيره ممن تقدمه ، ذلك هو كتابه تاريخ المغرب قبل الاسلام ، ونعني

به (قرطاجنة في أربعة عصور - أو تاريخ شمال افريقيا من عصر الحجارة الى الفتح الاسلامي) المطبوع بتونس سنة 1927 م فلقد جاء فيه لقراء العربية بعلم لم يكن هناك من أبناء البلاد ولا من غيرها من حديثهم به بلغتهم العربية قبله .

وهذا اذا استثنينا ما نشرته دار الطباعة السلطانية الفرنسية بباريس سنة 1280 هـ / 1963 م ذلك الكتيب الملخص الوجيز ذي الحجم الصغير في تاريخ المغرب القديم بعنوان : (تاريخ افريقيا والمغرب قبل الاسلام) مع ترجمة فرنسية بدون نسبة الى أي مؤلف أو كاتب ؟ وهذا الكتيب هو عبارة عن نظرة عابرة أو عرض حال - مجمل حول تاريخ هذه البلاد فيما قبل الاسلام .

أو ما كتبه العالم التونسي المرحوم محمد البشير صفر في كتابه (مفتاح التاريخ) الذي ضمنه مذكرات ومقالات في الموضوع طبع بتونس 1928 م ، وهذا العمل وان كان مفيدا فهو لا يبلغ شأننا وما كتبه المغفور له أحمد توفيق المدني في كتابه قرطاجنة ..

فكتاب قرطاجنة جاء بأوسع وأعمق وبخلاف ما جاء به هؤلاء . ففي كتاب المدني دراسة معمقة وتحليل وتعليل لقضايا الشمال الافريقي فيما قبل الاسلام وبحث استقصائي شاذ في تاريخ جميع الشعوب والأمم والدول التي تعاقبت على هذا الوطن عرقيا وسياسيا واجتماعيا ، وثقافيا وحضاريا وعسكريا ومدنيا وحربا وسلما .. فهو كما قال صاحبه : « 00 تجسيم العصر الماضي حتى يصبح كأنه الحاضر المشاهد ، وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية وحيث عوامل نهضتها وأسباب انحطاطها ، وربط الحوادث بأسبابها وبتأثيرها وتأثيرها على الحوادث على الوسائل وعلى الأدب وعلى الأخلاق .. » ص 4 ، 5 .

هكذا كان كتابه هذا كما جاء وصفه في المقدمة بالفعل ، وهكذا يراه جميع الناس اليوم ، فهو المرجع الوحيد في بابه والمصدر الأصيل في فنه الذي انطلق منه جميع كتاب العرب ممن خاض منهم في هذا الموضوع واليه عادوا قالوا ان المؤلف رحمه الله قام بتأليفه لهذا الكتاب بأداء

مهمة تاريخية خالدة خدم بها أمته ووطنه العزيز خدمة لم يسبق اليها أحد قبله •

ثم انه ليس هذا العمل وحده هو الذي أثبت للاستاذ توفيق المدني فضل السبق في هذا المجال ، بل هناك صنيع آخر حاز به قصب السبق أيضا ، وذلك صنيعه فيه أخرج للناس من دراسة مفصلة لفرع آخر من فروع العلم والمعرفة وهو فرع حساس يتصل بأعماق ومشاعر سكان المغرب بصفة عامة وبسكان المغرب الأوسط منهم بالخصوص - الجزائر - ذلك هو كتاب جغرافية القطر الجزائري المطبوع بالجزائر سنة 1948 م فلقد أفاد به النشأ الجزائري بالمدرسة العربية أيما افادة بل وحتى خارج المدرسة العربية من الكبار الذين لم يدرسوا سوى لغتهم ولم يعلموا عن وضعية بلادهم شيئا قبله •

فلولا المدني ما عرف قراء العربية من أبناء هذا الشعب تاريخهم القديم ولا عرفوا تاريخ بلادهم الزكية في قديم الزمان ولا عرفوا وضعية بلادهم جغرافيا ولا سياسيا ولا طبيعيا ولا اقتصاديا فبفضل المدني عرف طلاب المدارس العربية وغيرهم كل ذلك فكان لهم في هذا المضمار - رحمه الله - القدم السابقة والمزية الظاهرة •

وهذا من غير ما له من التأليف الجليلة الأخرى المطبوعة التي عرفها الناس جميعا وكلها نفيسة ومفيدة ، وهناك غير المطبوع مما نرجو له السلامة والحفظ من عوادي أيدي الزمن حتى يتاح له بحول الله الفرصة فيقدم للطبع والنشر فيعم النفع وينتفع العامل بالأجر والمثوبة عند الله عز وجل ، انه لا يضيع أجر المحسنين •

عبد الرحمن الجيلالي

الجزائر - ربض عين الازرق

1984 / 4 / 27